العمارة الإسلامية والبيئة : مدخل لإعادة قراءة التاريخ الإسلامي

عرض و تعليق

عـزة سلطـان

العمارة الإسلامية والبيئة : مدخل لإعادة قراءة التاريخ الإسلامي/ تحرير يحيى وزيرى .- الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ٢٠٠٤ .- (عالم المعرفة ؛ ٣٠٤) .

اتجهت عديد من الأبحاث والدراسات إلى المؤثرات البيئيه في العمائر والمدن الإسلاميه تجاه معطيات البيئه ، والتي لوحظ أن أغلبها ركزت على المؤثرات المناخيه فقط ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ركزت أغلب الدراسات على عمارة المسكن الإسلامي دون سائر الأنواع الأخرى من المباني والتي يأتي على رأسها المسجد ، إلا أنه لا يمكن فهم العمارة الإسلامية إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر عمقاً . فالعمارة الإسلامية شكلتها وأنضجتها عدة روافد دينية و حضارية ومناخية . . هذه الروافد في مجملها تمثل الرؤيه الأكثر شمولاً لمفهوم البيئه التي يجب ألا تقتصر على العوامل المناخية فقط ولكن تتعدى لتشمل أيضاً البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية .

هكذا تم التصدير لكتاب يعد من أهم الكتب التي تتناول العمارة الإسلامية برؤية مغايرة عن السائد . يحمل هذا الكتاب عنوان" العمارة الإسلامية والبيئة : الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي " ؛ وهو عمل إبداعي لمؤلفه المتميز -خبير العمارة الإسلامية والبيئة ومباني المعاقين - الدكتور المهندس يحيى حسن وزيرى ؛ وهو يشغل منصب رئيس ومدير دار الفن الإسلامي للعمارة ، ومن ثم

فهو من أكثر المتخصصين في المجال ، وإن كان يفاجئنا بعرض الموضوع في سلاسة ووضوح تناسب القارىء العادي جنباً إلى جنب مع القارىء المتخصص والذي يجد مادة ثرية في هذا الكتاب ؛ حيث يحرص المؤلف من خلال كتابه الصادر في مائتين وخمسة وثمانين صفحة (٢٨٥) على إعانة القارىء على إعادة قراءة التاريخ الإسلامي ومن ثم فهم العمارة الإسلامية بشكل جيد من خلال منهجية خاصة في تقسيم المتن بموضوعية تتدرج من العام إلى الخاص ؛ حيث يبدأ بثلاثة محاور عامة يتناول المحور الأول منها : الروافد الدينية للعمارة الإسلامية من القرآن والسنة ، متطرقاً لمفهومي البيئة والعمارة كل على حدة ثم ربطهما ، والمحور الثاني يقدم سرداً تاريخياً للحضارة الإسلامية منتقلاً مع حقباتها المختلفة من بيئة إلي أخرى ، والمحور الثالث العوامل البيئية المختلفة ومدى معالجتها في تصميم العمارة الإسلامية ، أما المحور الرابع فينقسم إلى ثلاثة أقسام فرعية : قسم يعالج المساجد ، وآخر يعالج المساكن ، والثالث يعالج تنسيق الحدائق ، وتأتي هذه المحاور الأربعة في فصول ستة تحمل العناوين التالية :

■ الفصل الأول : عمارة البيئة في الإسلام .

■ الفصل الثاني : التفاعلات الحضارية التي شكلت العمارة الإسلامية .

■ الفصل الثالث : المعالجات المناخية في تخطيط وتصميم مباني المدينة الإسلامية .

■ الفصل الرابع : عمارة المساجد . . رؤيه بينية .

■ الفصل الخامس : المسكن الإسلامي في البيئات الحضرية وغير الحضرية .

■ الفصل السادس : الحدائق و تنسيق المواقع .

ويرى المؤلف أن فن العمارة ذا صلة وثيقة بالمجتمع فيتأثر به ويؤثر فيه ، ومن هنا يظهر أن لدراسة الجانب المعماري لمجتمع ما فإنه يجب أن نتمثل أمامنا جيداً وبدقة ، الحالة العقلية العامة والوجدانية ، وكذلك العادات والتقاليد التي تسوده ؛ والتي تُساهم في إفراز وظهور طابع او طراز معماري مهين يتميز به هذا المجتمع دون سواه من المجتمعات الأخرى (ص ٩) .

وقد قدم المؤلف لكتابه بمدخل تمهيدي يعرض فيه المفاهيم الإصطلاحية واللغوية للبيئة ، ويربط بينها وبين العمارة ،كما يشير إلى عدد من الحضارات التي كانت موجودة بمنطقة شبه الجزيرة العربية مثل الحضارة الإغريقية ، وحضارة مابين النهرين ، والحضارة الرومانية والساسانية بوصفها جذوراً للتصميم البيئي في حضارات ما قبل الإسلام ، وعلى الرغم من أن التاريخ الإسلامي لم يعرف عن العمارة في بداية الإسلام سوى مسجد الرسول ، إلا أن دعائم الدولة الإسلامية سرعان ما استقرت وبدأ يظهر للفن الإسلامي الطراز والملامح الخاصة به ، بدءاً من العهد الأموي ، وخاصة مع

بناء المسجد الأموي وقبة الصخره في بيت المقدس (ص ٢١) وبصفة عامة كان هناك عدداً من المؤثرات التي ساهمت في تكوين العمارة والفنون الإسلامية ، وهو ما يبلوره المؤلف في كتابه ونعرض لأهم ملامحه في السطور التاليه .

عمارة البيئة في الإسلام

يقول الله سبحانه وتعالى "وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب" (آيه ٦١ _هود) .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء كان له أجر جار ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى صدق رسول الله عليه وعلى آله افضل الصلوات والسلام .

وإذا تأملنا سور القرآن الكريم يلفت نظرنا أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أسماء بعض منها له ارتباط بالعمارة والتعمير كسور "الكهف" و "الحجرات" و"البلد" كما جاء ذكر العمارة بلفظها واشتقاقها في آيات عديدة ، بل وقص علينا من خلال بعض آياته بعضاً من جوانب الحضارات المعمارية للأمم السابقة ، وما كانت تحويه من تقدم عمراني و حضاري كبير ، كما أشار القرآن الكريم إلى ظروف البيئة كعامل مؤثر في اختيار مواقع المدن ، ولفتت الآيات النظر إلى أهمية دراسة الموقع واختيار أفضل الاتجاهات بالنسبه للشمس والرياح ، وقد ورد ذلك في السنة النبوية عندما شرع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في بناء المسجد النبوي فاختار مكانه .

وقد عنى القرآن بالعمارة فورد ذكر عديد من مواد البناء كالآجر والزجاج وذلك في عدد من الآيات فنجد في قوله تعالى "فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى" (من الآيه ٣٨ _القصص) (ص ٣٨) ، وقد عرفت الحضارات السابقة البناء بالصخور والأحجار مادامت قد توافرت في البيئة التي يعيشون فيها كما في حضارة ثمود "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد" (آيه ٩ _ الفجر) ، ويخرج الأمر من حيز تناول مواد البناء بأنواعها والتي كانت معروفة في الحضارات السابقة إلى التطرق إلى إرساء القواعد في البناء فنجد أن الآيات القرآنيه لا تغفل قاعدة مهمة يجب ألا تغفل عنها البشر عند عمارتهم للأرض ألا وهي النهي عن بناء مباني العبث والمجون ، وتأخذ السنة النبوية دورها في إتمام القواعد فتؤكد على عدد آخر من القواعد وذلك بترغيبها للمسلمين في إنشاء مباني الأسبلة في العمارة الإسلامية سواء كانت منفرده أو ملحقاً بها كتاتيب لتحفيظ القرآن (كسبيل

عبدالرحمن كتخدا بالقاهره) أو جزء من المجموعات المعمارية (ص ٤٠) ، كما كثر إنشاء الحمامات العامة في المدن الإسلامية لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر .

أما منزلة القبة فهي بالغة الأهميه وذات تأثير على عمارة المساكن حتى في العهود التي قبل الإسلام وذلك في أماكن متعددة من العالم الإسلامي ونلمح هذا الأمر الإلهي في قوله تعالى : "وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين" (آيه ٨٧ _ يونس) ، ويظهر هذا التأثير القوي لاحترام اتجاه القبلة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي ، فعلى سبيل المثال في منطقة آسيا الوسطى فإن غرف البيت الرئيسية تحتوي على محراب في جدارنها الغربية (أي تجاه مكة المكرمة) ، كما أنه من المألوف ألا ينام المسلم متجهاً برجليه باتجاه مكة المكرمة ، ولا يوجد المرحاض أيضاً بإتجاهها ، وكل هذه المتطلبات أُخذت في الاعتبار عند تصميم غرف المعيشة والخدمات بالموقع ، لذلك فإن هذه المفاهيم قد أثرت بعمق في تخطيط المسكن والمدينة (ص ٤١) .

ولم تكتفِ القواعد التي أرساها القرآن الكريم والسنة النبوية في تخطيط العمارة الإسلامية بل حرص المصممون على أحد المبادىء الهامة التي طبقت في أسلوب تصميم المسكن الإسلامي وهو مبدأ الخصوصية والستر ، كما اهتم الإسلام بالطرق وذلك لأنها تعتبر الشرايين التي تتدفق فيها الأنشطه الإنسانسية والاقتصادية ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجور على الطريق عند إقامة المنازل حتى لا تضيق الطرق . (ص ٤٥) .

أما الفقهاء فقد اعتمدوا في تناولهم لقضايا العمران وأحكام البنيان في المدينة الإسلامية على ثلاثة مصادر من الشريعة وهم : القياس والعرف والاستصحاب (ص ٤٦) ، أما في ما يتعلق بمسببات الضرر فقد حدد الفقهاء مسببات الضرر في ثلاثة أنواع هي : الدخان ، والرائحة الكريهة ، والأصوات المزعجه ، وكان لذلك أثره المباشر في دفع نوعيات المنشآت الصناعية التي تتسبب في هذا الضرر إلى أطراف المدينة الإسلامية ، وقد أولت التشريعات والقوانين الاهتمام بحماية البيئة ونظافة المدن الإسلامية عناية كبيرة ، ويظهر ذلك في وجود اشتراطات ومواصفات بنائيه معينة يجب توافرها ببعض الحوانيت . . كما نظمت الأحكام الإسلامية حفر الآبار في منازل المدن خصوصاً ماتجاور منها لتجاور المنازل (ص ٥٠) .

التفاعلات الحضارية التي شكلت العمارة الإسلامية

يزعم بعض المؤرخين والباحثين في العماره أن الفن الإسلامي قام على التقليد أكثر من الابتكار ، ولا شك أنه حكم سطحي اعتمد في كثير من جوانبه نتيجة لما رأوه من تأثر الفن والعمارة الإسلامية في مراحل تكوينها الأولى بما سبقها من حضارات ، ويرد الفيلسوف الألماني «اشبلنجر» على هذه الإدعاءات بقوله "إن الحضارات تقوم مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ، وكل منها تكون وحدة أو دائرة مقفلة ليس بينها وبين غيرها من الحضارات غير منافذ من نوع خاص لا تسمح بنفوذ شيء لا يتلاءم وجوهر هذه الحضارة وما تسمح به لا تلبث أن تحيله إلى طبيعتها" (ص ٥٣) ، وتأكيداً على آراء «اشبلنجر» فإن «لوبان» يُرجع الاختلاف الواضح في فن العمارة العربي إلى اختلاف البلدان التي نشأ فيها وتفاعل ، ويؤسس تصنيفه على ذلك وهو يميز بين أربع مراحل أساسية :

١ . مرحلة الطراز العربي قبل ظهور النبي (عليه الصلاة والسلام) ، وفيها يرى «جوستاف» أنه طراز لايزال مجهولاً باستثناء ما يستشف من بقايا اليمن القديمة ومن بقايا المباني التي أقيمت في الممالك السورية القديمة كمملكة الغساسنة (ص ٥٥) .

٢ . الطراز البيزنطي العربي : وقد نشأ نتيجة امتزاج المؤثرات الشرقية (السورية والساسانية) بالمؤثرات الإغريقية الرومانية ، وتمثل العمارة الفترة من القرن السابع الميلادي والقرن العاشر أو الحادي عشر الميلادى ، ويقسم هذا الطراز إلى ثلاثة أقسام تحدد تبعاً للمناطق التي نشأ بها وهي سورية ، مصر وإفريقية .

٣ . الطراز العربي الخالص وقد ظهر في منطقتين في مصر وبلغ ذروة كماله في جامع قايتباي (١٤٦٨م) ، وفي الأندلس ويظهر ذلك في البنايات التي أقيمت في إشبيليه وغرناطة . (ص ٥٦)

٤ . الطراز العربي المختلط : وفيه اختلط الطراز العربي بعناصر أخرى تم تقسيمها إلى خمسة طرز هي الأسباني العربي ، والإسرائيلي العربي ، والفارسي العربي ، والهندوسي العربي ، والهندوسي الفارسي العربي .

ويلاحظ من التصنيف السابق أن «جوستاف» لوبان قد اتخذ من الطراز العربي أساساً لفهم وتصنيف العمارة الإسلامية التي انتشرت في مناطق وبلدان مختلفة من خلال دراسة تفاعلاتها مع الطرز المعمارية الأخرى بداية من مراحل التكوين الأولى ، والذي جعل التأثير الأعظم فيها للطراز البيزنطي والذي قد استقى بدوره خصائصه من خلال الطرز المعمارية السابقه سواء كانت شرقية أو غربية (ص٥٧) .

وثمة تصنيف آخر للمراحل المعمارية يطرحه المؤلف وهو تصنيف «جون هوج» الذي يعتمد في رؤيته للتفاعلات الحضارية التي مر بها المعمار الإسلامي على ثلاثة مراحل أساسية الأولى أسماها "ما قبل الكلاسيكية" وهي محددة بفترة زمنية معينة حتى القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى وفي مناطق معينه متأثرة ببعض الحضارات السابقة خاصة الحضارة البيزنطية في الشام وشمال إفريقيا والحضارة الساسانية في العراق . أما المرحلة الثانية وهي مرحلة النضج والاستقلال الفني للعمارة الإسلامية وأسماها "الكلاسيكية والكلاسيكية المتأخرة" وتبدأ مع نهاية القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى مع انتشار التفاصيل والزخارف الخاصة بالعمارة الإسلامية وتميزها بطابع خاص ومحدد ويأتي على رأسها المقرنصات مع انتقال الأفكار والأشكال الزخرفية من منطقة إلى أخرى بحرية ، أما المرحلة الثالثة وأسماها "ما بعد الكلاسيكية" فتتمثل في عمارة الإمبراطورية العثمانية بعد فتح القسطنطينية والعمارة الصفوية في إيران والعمارة المنغولية في الهند (ص ٦١ ، ٦٢) .

وفي سرد تاريخي يستعرض المؤلف الطرز المعمارية الإسلامية موضحاً الفروق بين طرزها نتيجة اختلاف العوامل البيئية والتفاعلات الحضارية المختلفة والمتعددة ؛ والتي حدثت في عديد من مناطق العالم الإسلامي ، مبيناً كيف نجح كل طراز إسلامي في التعامل مع المعطيات البيئية والحضارية في البيئات والمجتمعات المختلفة متناولاً ذلك في شكل سرد تاريخي للتاريخ الإسلامي ؛ حيث يتميز التاريخ الإسلامي أنه ينتقل في كل حقبة من منطقة إلى أخرى ، حيث نشأت كل دولة في منطقة جغرافية مختلفة وأرست قواعدها وسماتها الحضارية ، فالدولة العباسية تتضح آثارها في العراق ، والفاطمية في مصر ، والعثمانية في تركيا ، بالإضافة إلى الأندلس والطرز المغولية والتيمورية والصفوية بإيران وما نشأ عن ذلك من طرز معمارية مختلفه ، وفي ذلك يستعرض المؤلف عدداً كبيراً من النماذج والأمثلة لما يذكره ، ويخرج للقارىء بنتائج هامة ؛ حيث يشير المؤلف إلى تميز العصر المملوكي بتنوع العمائر والعناية بالواجهات عند حديثه عن الطراز الفاطمي في مصر ، ويُرجع التقدم المعماري في عصر المماليك إلى نضج الأساليب المعمارية الفنية والمعمارية الإسلامية خلال ستمائة عامًا مع ارتقاء الحس الفني ووجود الصناع المهرة الذين لديهم القدرة على تنفيذ الروائع والعناصر المعمارية (ص ٧٦) ، وعلى النقيض يعرض المؤلف لوجهة نظر البعض بأن الفتره العثمانية هي فترة تراجع وتخلف في العمارة الإسلامية وذلك لأنها فرضت النظام البيزنطي في تخطيط العمارة الدينية ، كما فرضت زخارف استمدت عناصرها وأسلوبها من طراز الروكوكو الذي ساد في أوروبا في نهاية عصر النهضة ، (ص ٨٢) .

ويرى الدكتور «زكي محمد حسن» في أن العمارة الإسلامية قد أثرت على مباني الغرب ، وعلى فنونه خاصة في العصور الوسطى وفي ذلك يقول "وليس مثل هذا التبادل الفني غريباً في شيء فقد اتصل الشرق الإسلامي بأوروبا في العصور الوسطى بواسطة التجار أولاً ، والبيئة في الأندلس وجزيرة صقلية ثانياً ، وبفضل مشاهدات الحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة وما كانوا يحملون معهم من أوروبا من التحف الإسلامية ، ثم بواسطة الحروب الصليبية فضلاً عن اتصال الأوربيين بالدولة العثمانية بعد ذلك" (ص ٨٣) .

وفي تأكيد على ذلك يعترف "باتيسية" بتأثير الفن العربي على البنائين الفرنسيين ، ويرى في كاتدرائية "بوي" وهي أقدم البنايات النصرانية مثالاً لذلك ؛ حيث يوجد بها باباً مستوراً بالكتابات العربية (ص ٨٧) .

المعالجات المناخية في تخطيط وتصميم مباني المدينة الإسلامية

نظراً لأن معظم العالم الإسلامي يشغل حالياً نطاقات عظيمة على خريطة العالم ، فإنه يتعين على القارىء أن يتعرف على المناطق المناخية المختلفة للعالم والتي يعرض لها المؤلف في أربعة مناطق هي :

١- المناخ البارد القطبي .

٢- المناخ المعتدل .

٣- المناخ الحار الجاف .

٤- المناخ الحار الرطب .

وكانت هذه الظروف المناخية المختلفة تمثل تحدياً لكل من المخطط والمعماري المسلم ، وقد تمكن المعماريون المسلمون من التصدي للمشكلات المناخية التي واجهتهم عند إقامة مدنهم ومبانيهم في المناطق الصحراوية وغيرها معتمدين في ذلك على الموارد والطاقات الطبيعية المتجددة والمتوافرة في البيئة كطاقة الشمس والرياح (ص ٩١) وقد نتج عن ذلك ظهور عدد من السمات في المدينة الإسلامية مثل عدم وجود حواجز أو فواصل بين البنايات (ص ٩٥) ، وضيق الشوارع وتعرجها ؛ حيث يؤدي ذلك إلى تعرضها لأقل قدر ممكن من الإشعاع الشمسي المباشر ، كما أن ضيق الشوارع كان يتناسب مع وسائل الانتقال في ذلك الوقت والتي لم تكن تتطلب شوارع ذات عروض أكبر (ص ٩٧) ، وقد اتبع المعماريون المسلمون أيضا في مدنهم تسقيف الشوارع وبروز الواجهات وذلك لتوفير المزيد من الظلال (ص ١٠٠) ، أما فيما يتعلق بالجوانب الصحية وتغذية المدن بالمياه النقية فقد حرص المعماريون المسلمون على إنشاء شبكات صرف منفصلة لكل مجموعة معمارية كبيرة كذلك إنشاء شبكات تغذي وحداتها المختلفة بالمياه (ص ١٠٣) .

أما عن المعالجات المناخية التي اتبعها المعماريون العرب في تصميم المباني فقد بدأت عنايتهم من اختبار مواد البناء (ص ١٠٥) ، ثم تصميم فناء داخلي كأحد أهم الحلول المناخية لمقاومة الجو الحار تحديداً (ص ١١٠) ، كذلك وجد التختبوش ، المقعد ، والإيوان كأحد العناصر والفراغات المعمارية الأساسية التي وجدت في أغلب المساكن بالمدن الإسلامية خاصة في مصر (ص ١١٣) ، وفي المناطق الحارة كانت هناك ملاقف الهواء (ص ١١٦) والتي تعتبر كأحد أهم العناصر المميزة في المباني الإسلامية وتعرف على أنها مداخل تقوم بتهوية المبنى في وجود مخارج الهواء ، ومنها ملقف السطح والذي يعد من أبسط أنواع الملاقف (ص ١١٨) ، وهناك أيضاً برج للرياح أو الكاشتيل ، وهو عبارة عن برج للرياح يقوم باصطياد الهواء من خارج المبنى للغرف الداخلية وتأخذ الأبراج أشكالاً مختلفة تختلف حسب الظروف المناخية المحلية واتجاهات الرياح المرغوب فيها في كل منطقة (ص١٢١) ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد إلى كيفية توزيع الفتحات بواجهات المباني الإسلامية خاصة السكنية (ص ١٢٤) ، وكان يُراعى عند تصميم النوافذ والفتحات في واجهات البيوت ضبط مرور الضوء ، وضبط تدفق ورطوبة الهواء ، بالإضافة إلى تحقيق الخصوصية والربط بين الداخل والخارج ص (١٣٠) . أما معالجة الضوضاء فجاءت من خلال جعل الفناء الذي يُستخدم كحجرة للمعيشة يتوسط المسكن بالإضافة إلى صنع جدران سميكة (ص ١٣٣) ، وهو مايؤكد على أن المنازل الإسلامية قد صُممت على أساس ومعرفة جيدة بالعوامل والظروف المناخية لكل منطقة .

عمارة المسجد .. رؤى بيئية

يعد المسجد هو المبنى الرئيسي في أي مدينة إسلامية منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة . وإنشائه مسجد قباء ثم المسجد النبوي كأول مسجد إسلامي خالص في العمارة الإسلامية ومن ثم فقد سار العرب . الفاتحون على النهج نفسه ؛ حيث كانت المساجد أول مايبنى بعد الفتح أو عند إنشاء المدن الإسلامية الجديدة ، ومن هنا اعتبر الدارسون والمؤرخون أن المسجد هو أحد الأسس إن لم يكن أولها في تخطيط المدينة الإسلامية ، ويرى المؤلف أن المسجد هو الدليل على مفهوم الوحدة والتنوع في العمارة الإسلامية ؛ حيث اختلفت الطرز المعمارية لكنها اتفقت على عدد من الأسس فيما يخص المسجد لخصها المؤلف في أربعة عناصر هي : جدار القبلة (ص ١٣٦) ، والصحن المكشوف ، والأروقة المسقوفة ، والمنبر (ص ١٣٨) ، وعلى الرغم

من هذه الوحدة عند بناء المساجد إلا أن المؤلف يُشير إلى التنوع في تصميم المساجد فهناك النموذج النبوي، والنموذج ذو المجاز القاطع (ص ١٣٩)، والنموذج ذو الأكتاف البنائية، والمساجد المعلقة (ص ١٤٠)، والنموذج ذو الإيوانات، والنموذج ذو القبلة السيطرة (ص ١٤١)، ولم يقتصر التنوع على شكل التصميم الخارجي للمسجد بل امتد ليشمل العناصر المعمارية والزخرفية مثل شكل المحاريب والمنابر، وشكل المآذن والقباب (ص ١٤٤)، كذلك شكل الأعمدة والشرفات والمقرنصات، بالإضافه إلى أن شكل الزخارف قد اختلف من مسجد إلى آخر حسب المنطقة الجغرافية والفترة التاريخية.

تأثيرات المسجد في العمارة الإسلامية وتأثره باختلاف البيئات

لما كان المسجد هو أهم بناء في العمارة الإسلامية؛ نشأت بينه وبين البيئة العمرانية تأثيرات متبادلة، حيث أمكن حصر التأثيرات البصرية منها مستويين: الأول يظهر من خلال تباين التشكيل البصري بين الفراغات الخارجية وصحن المسجد، والثاني يظهر من خلال التأثير البصري للمسجد داخل البيئة العمرانية له (ص ١٥٢)، وتمتد العلاقة بين المسجد وبيئته إلى النواحي الاقتصادية.

أما تأثير الظروف المناخية على تصميمه فقد هدت المصمم المسلم إلى استخدام أساليب التهوية الطبيعية في تهوية المساجد كوجود الصحن المكشوف (ص ١٦٠)، وأبراج وملاقف الهواء، لكن هذا الصحن يختفي في البلدان ذات الجو البارد ليحل مكانه قاعات مغلقة وتتم تدفئة المسجد من خلال الأرض والنظام المعروف بالبخاري (ص ١٦١).

لاشك أن البيئات المختلفة قد أثرت على عمارة المسجد، فاختلف المسجد من آسيا إلى إفريقيا إلى الأندلس، إلا أن عمارة المسجد في البلدان المختلفة خاصة في المجتمعات غير المسلمة قد عكست ارتباط المهاجرين المسلمين ببلادهم (ص ١٦٧)، وقد تعدى تصميم المسجد في هذه المجتمعات عملية نسخ وتقليد بعض العناصر المعمارية التقليدية من مآذن وقباب وعقود وما شابه إلى رؤية أكثر عمقاً تستلهم روح وقيم الإسلام بتصميمات لا تتعارض مع الضوابط الشرعية، وإن كانت تتبنى حلولاً تعتمد على التقنيات الحديثة في إطار دارسة وفهم التاريخ الثقافي والفني للمجتمعات غير المسلمة، كان حسب خصوصيته الثقافية والمكانية، فتلك المساجد لاتخدم فقط حاجات الجماعات المسلمة بل تحتضن أيضاً بعض القيم الرمزية والرسائل الصامتة لدعوة غير المؤمنين بالدين الإسلامي للدخول فيه واعتناق مبادئه السامية (ص ١٧٠).

المسكن الإسلامي في البيئات الحضرية وغير الحضرية

أوجد المصمم المسلم من خلال الخبرات التي اكتسبها من عملية التحضر وبناء المدن نماذج للمسكن الذي يعبر عن احتياجات المسلم في مختلف بلاد العالم الإسلامي ، وقد أدى تأثر المسكن العربي والإسلامي بالتوجيهات الدينية والعادات الشرقية خاصة إلى عامل الخصوصية والستر إلى جانب مراعاة العوامل البيئية والمناخية التي تميزه ببعض الخصائص العامة توفرت اغلبها في المسكن القاهري ، ويفصلها المؤلف في خمسة عناصر هي :

- وجود المنزل المنكسر حيث لا يؤدي إلى فناء المنزل مباشرة .
- وجود الفناء المكشوف .
- وجود تختبوش بالدور الأرضي أو إيوان .
- المقعد بالدور الأرضي مخصص لاستقبال الضيوف .
- وجود قاعة رئيسية للرجال وأخرى للحريم .

ويحاول المؤلف التعرف على أهم المعالجات البيئية والمناخية التي روعيت في تصميم هذه المساكن واختلافها من بلد إلى آخر ، مع الاعتماد على العناصر السابقة كوحدة يتم القياس عليها ، ويتم ذلك من خلال عرض عدد من الدراسات التحليلية لشكل وتصميم المسكن في المدن الحجازية (ص١٧٣) ، مثل مدينة مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وجدة ، ثم ينتقل للحديث عن المنزل اليمني ؛ حيث يرى فيه طابعاً متميزاً للملامح المحلية (ص ١٧٧) ، وينتقل المؤلف مرة اخرى للمسكن الخليجي ؛ حيث يجد أن العمارة الخليجية القديمة -خاصة فترة ما قبل ظهور البترول - ذات شخصية فنية متميزة تتوافق مع طبيعة البيئة والمناخ الحار الرطب ، متخذاً من نماذج العمارة الخليجية بسلطنة عمان مثالاً على ذلك (ص ١٨٤) ، أما المسكن العراقي فقد تميز عن غيره من المساكن الإسلامية بوجود السراديب (ص ١٨٧) ، وفي مدينة رشيد مصر يجد المؤلف في طابعها الأثري تصميمًا معماريًا يختلف عن بيوت القاهرة الفاطمية مما يجعله يتخذها مثالاً عند الحديث عن العمارة الإسلامية في مصر (ص١٨٩) .

وعند البحث عن العلاقة بين البيئه وتصميم المسكن في العالم الإسلامي لم يغفل المؤلف المسكن في المناطق الريفية في البيئات غير الحضرية مثل : مساكن النوبة بجنوب مصر ، ومساكن الهاوسالاند بنيجريا (ص ١٩٣) ، ومساكن الريف في شمال المغرب ، ومساكن الشاوية في الجزائر (ص ١٩٦) ، والمساكن المبنية بالنخيل في سلطنة عمان

(ص١٩٧) ، والمساكن المتعددة الأدوار في عسير السعودية ، ومساكن المستنقعات بالعراق (ص١٩٩) ، ومساكن خلايا النحل بسوريا (ص٢٠٠) . . . وغيرهم ؛ حيث يجد أنها تعبر بتلقائية عن العمارة في بعض المجتمعات المحلية الصغيرة التي يوجد بينها وبين بعضها فروق اجتماعية وثقافية ومناخية على الرغم من أن هذه المجتمعات ربما تكون في بلد واحد .

وفي نهاية الفصل يشير المؤلف إلى وجود بعض المباني السكنية ذات الطبيعة الخاصة من حيث إنها تؤدي إلى جانب المسكن وظيفة أخرى تجارية أو فندقية (ص ٢٠٣) ، ومن هذه المباني الربع الإسلامي وهو نموذج للإسكان الشعبي ، والوكالة التي كانت تؤدي وظيفة تجارية ، والخان وله صفة فندقية .

الحدائق وتنسيق المواقع

كان للتصوير القرآني للفردوس ولوصف عديد من الأحاديث النبوية للجنة بما تحويه من متع حسية وروحية ، إلى جانب محاولة التغلب على الظروف البيئية القاسية الدافع القوي لدى المسلمين لمحاكاة هذا التصوير المثالي في تصميم وتطوير الحدائق الإسلامية ، وقد بدأت التصميمات في العصر الإسلامي وفقاً لعادات وتقاليد موروثة ، وقد استخدمت الأشجار والنباتات في الحديقة الإسلامية لإيجاد الظلول والحصول على المتعة البصرية . . وقد بلغ اهتمام العرب بتحقيق الجانب الجمالي في الحدائق إلى أنهم قد أحاطوا في بعض الأحيان جذوع الأشجار برقائق الذهب ، كما استخدمت المسطحات المائية ، ولقد تم تزويد الحدائق الإسلامية بالأرائك والمجالس التي كانت غالباً ما تختار بالقرب من النباتات والمسطحات المائية للاستمتاع بها عن قرب (ص ٢١٨) ، كما جاء استخدام الكتابة العربية بالخطوط المختلفة لكتابة الآيات القرآنية في أجزاء كثيرة من الحديقة الإسلامية خاصة على أبوابها .

وقبل أن يتعرض المؤلف لشكل الحديقة الإسلامية وطرق الاهتمام بها يعرض فوائد الحدائق من النواحي الصحية والبيولوجية ، والجمالية والاجتماعية ، ثم يتناول نبذة عن التطور التاريخي لتصميم الحدائق (ص ٢١٠ : ٢١٣) متخذاً أمثلة متنوعة لتنسيق الحدائق عند قدماء المصريين ، وعند الآشوريين والبابليين ، وكذلك الحدائق الفارسية والإغريقية والرومانية .

ويجد المؤلف تنوعاً في تصميم الحدائق في البقاع المختلفة من العالم الإسلامي على الرغم من اعتمادها جميعاً على تقاليد معينة (ص ٢٢٢) ، مما يدفعه لإيراد أمثلة على التنوع الموجود في تصميم وتنسيق الحدائق المختلفة منها الحدائق الأندلسية ، والحدائق الأناضولية التركية ، والإيرانية ، والهندية .

وبذلك يصل المؤلف إلى نهاية الموضوع ، ويُلاحظ أن المؤلف قد أسهب في ذكر التفاصيل المعمارية الخاصة ، كما في وصف المشربيات عند الحديث عن المسكن الإسلامي ، وذكر النوافير واستخداماتها ، وكذلك الأشكال المختلفة للمنابر عند الحديث عن المساجد ، دون أن يعتمد في حديثه على الصور ، مما يُفقد القارىء متعة خاصة في رسم صورة شبه حقيقية عن العمارة الإسلامية ، حتى النماذج الأكثر شهرة مثل مسجد قيتباي ، ومرسة عبد الرحمن كتخدا ، وغيرها من الآثار الإسلامية المعروفة في القاهرة الفاطمية وبقية المدن الإسلامية ، مما أضعفه قليلاً ، إلا أن السرد التاريخي للدولة الإسلامية بعهودها المختلفة كانت خير معين للقارىء على التتبع المنطقي لتطور العمارة الإسلامية في العالم الإسلامي ، وقد أكد المؤلف بالدليل من خلال عرضه على مقولة " لي كوروبوزييه " بأن " العمارة الإسلامية تمتاز بفكر معماري سليم في معالجة النواحي البيئية " ومن ثم فإن هذا الكتاب يفيد القارىء المتخصص ، والعادي .